

أعراض مرضية



انتشرت جائحة كورونا عبر مجتمعات عالمية عديدة تعاني أساساً، عللاً سياسية، مثل تفشي كره الأجانب والفساد، وتفاقم الخصخصة، في زمن خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وصعود الأحزاب اليمينية الأوروبية، ومغادرة ترامب البيت الأبيض. يضع المؤلف هذه الأمور أمام عينيه في تشريح عالمنا الذي يمرّ بأزمات عديدة منذ الحرب العالمية

الأولى وإلى الآن.

يشير المؤرخ الشهير دونالد ساسون في هذا الكتاب الجدلي، إلى أنه كانت هناك أعراض مرضية وافرة في عالمنا، ويرسم صورة كاملة عن الانحدار العالمي السريع في الهمجية السياسية، مازجاً بين الكشف الصريح والمراجع الكلاسيكية، مع مجموعة من البيانات

ويتساءل ساسون: لماذا يمتلك المدنيون في الولايات المتحدة، نسبياً، أسلحة أكثر من المدنيين في دولة مثل اليمن، حيث تعاني الحرب؟ لماذا دخلت المملكة المتحدة الوباء بعدد أطباء أقل من أي دولة في الاتحاد الأوروبي باستثناء بولندا ورومانيا؟

يرفض مؤرخنا في هذا الكتاب (الصادر عن دار «فيرسو» للنشر باللغة الإنجليزية في مارس 2021 ضمن 304 صفحات)، التخلي عما أسماه أنطونيو جرامشي بتفاؤل الإرادة، وبدلاً من ذلك يستشهد بعبارة للفيلسوف مكيافيلي في «كتابه «تاريخ فلورنسا». ويرى أنه «مع وجود حكومة أفضل، ستحظى مدينتنا بثروة أفضل في المستقبل

تشكيك في الروايات

يقول في مقدمته للكتاب: «أدركت في سن مبكرة جداً أن التاريخ (على عكس الرياضيات) كان متشابهاً في كل مكان. حدث أنني بدأت مدرستي الابتدائية في باريس في وقت سمع فيه كل تلميذ فرنسي أن أسلافنا كانوا من بلاد الغال. احتوى الكتاب المدرسي الذي استخدمناه على صورة للزعيم الغالي فرسن جتريكس الذي تحدى الغزاة الرومان. هزمه يوليوس قيصر في معركة أليسيا، ثم نُقل إلى روما سجيناً، ومثّل به في الشوارع وأُعدم. كنا جميعاً مليونيين بالتعاطف «والشفقة على الرجل المقيد بالسلاسل الذي تم جره خلف عربة

ويضيف: «بعد عامين (في عام 1954) انتقل والداي إلى ميلانو ووجدت نفسي في مدرسة ابتدائية إيطالية. ما بعث على الاطمئنان، أن جداول الضرب كانت هي نفسها، ولكن في مادة التاريخ لدينا، لم يكن هناك ذكر لبطل الغال. سألت المعلمة عنه بعد لحظة من التردد، قالت: آه، نعم، فرسن جتريكس»، مضيفة: «أوه، إنه أحد البرابرة الذين سحقتهم قوة جحافل قيصر الرومانية. اندهشت: بطل قومي في فرنسا لم يكن معروفاً تقريباً في إيطاليا، وهي دولة مجاورة، حيث «احتفلوا عندما قيدوه بالسلاسل حينها

ويوضح: «كان هذا أفضل درس تاريخ في حياتي. منذ ذلك الحين، ظللت متشككاً في الافتراضات الوطنية من تجربة حياتي. بصفتي يهودياً، ولدت في مصر، بجواز سفر بريطاني (تم الحصول عليه على الأرجح لأسباب استعمارية من قبل أجدادي)، وتلقيت تعليماً في فرنسا، ثم في إيطاليا ثم في وقت لاحق في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وجدت أنه «من الأسهل لدى معظم الناس تجنب الوقوع فريسة الأساطير الوطنية، بما في ذلك الأساطير اليهودية

تعثر في ولادة الجديد

ويتابع الكاتب تحليل الوضع العالمي في الفصول الأولى من الكتاب، ومما يقوله في الفصل الأول بعنوان «العالم يحتضر»: «في زنزانة سجن فاشية في توري جنوبي إيطاليا عام 1930، بعد عام من الانهيار العظيم عام 1929، وبعد ثماني سنوات من زحف موسوليني إلى روما، وثلاث سنوات قبل صعود هتلر إلى السلطة، زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي، صاغ الفيلسوف والمناضل الإيطالي أنطونيو جرامشي هذه العبارة الشهيرة: الأزمة هي بالضبط ما يلي: القديم

«يحتضر والجديد لا يولد، في هذا الفاصل تظهر مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعراض المرضية

ويتساءل: «هل ما زالت هذه الكلمات مناسبة لوصف وضعنا الحالي، بعد مرور أكثر من ثمانين عاماً على وفاة جرامشي؟ نحن لسنا في الثلاثينات. والفاشية ليست على الباب. الديمقراطية الليبرالية موجودة في بلدان أكثر من أي وقت مضى. ربما تكون البطالة قد زادت مقارنة بالسنوات الذهبية للطفرة التي أعقبت الحرب، لكن الانكماش العالمي في 2007 و2008، مهما كان خطراً، لم يكن كارثياً في أي مكان مثل انهيار وول ستريت (على الرغم من العواقب الاقتصادية طويلة المدى لوباء الفيروس التاجي ربما تثبت أنها أسوأ من تلك التي حدثت في عام 1929). أوضح جرامشي أن الأزمة التي كان فيها القديم يحتضر ولكن الجديد لم يولد بعد، كانت ما أسماه «أزمة السلطة»، حيث «فقدت الطبقات المهيمنة الأرض، وتلاشى الإجماع الذي يدعم حكمها، وسيطرتها الأيديولوجية على الجماهير تتضاءل

ويوضح الكاتب أن جرامشي لاحظ أن هذه الجماهير لم تعد تتبع الأيديولوجيات التقليدية. لقد أصبحت بشكل تدريجي أكثر تشاؤماً وشكاً. لم تعد تثق بالنخب، والنخب تعرف ذلك حق المعرفة. ومع ذلك ظل «الجديد» غير متوقع. اعتاد الماركسيون تقليدياً على اعتبار الأزمات فرصاً للتغيير الجذري. جرامشي، الأقرب إلينا كثيراً، أقل تفاؤلاً. كانت الحالة التي كان يصفها هي «فترة فاصلة «تعج» بأعراض مرضية»، وليست حالة ثورية محتملة. لم يستبعد العودة إلى القديم، على الرغم من أنه كان يأمل بما أسماه «تفاؤل الإرادة مقابل تشاؤم العقل» أن ظهور الأعراض المرضية فرصة للتقدم

ويعلق الكاتب: «السمة الرئيسية لهذه الفترة الفاصلة بين القديم والجديد هي عدم اليقين. يشبه الأمر عبورك نهراً عريضاً: تركت ضفة النهر الأولى، لكن الجانب الآخر لا يزال غير واضح لك، التيارات قد تدفعك إلى الوراء ولا يمكن استبعاد الغرق. لست قادراً على توقع ما سيحدث، يغلب عليك الخوف والقلق والذعر. قد يشير أحد النقاد إلى أنه عندما كتب جرامشي تلك الكلمات، ظهرت بالفعل موجة «جديدة» غير مرغوب فيها: الفاشية الإيطالية «أعراض مرضية» بالتأكيد، ولكنها أيضاً شكل جديد من أشكال الدولة التي حظيت ببعض الإجماع الشعبي. تبخرت الدولة الليبرالية «القديمة». وقد تحطمت الآمال التي ولدتها الثورة الروسية، وفشلت الثورات المتوقعة على مستوى القارة في أن تتحقق

ومضات تاريخية

في أعقاب الحرب العظمى، والانتشار غير المتكافئ لما يسمى بالإنفلونزا الإسبانية التي قتلت ما بين 17 و25 مليون شخص في جميع أنحاء العالم، تم تغيير مسار الثوار الذين كانوا يأملون تكرار إنجازات البلاشفة بشكل كامل. تم قمع الثورة المجرية بقيادة بيلا كون في عام 1919 بعنف. وفي النمسا، فشلت مجالس الجنود والعمال بقيادة الشيوعيين في تدمير الجمهورية البرجوازية الناشئة. وفي ألمانيا تعرضت «ثورة سبارتاكوس» أو المعروفة أيضاً باسم «انتفاضة يناير» 1918 1919 للقمع الدموي من قبل فريكوربس، وهي منظمة يمينية شبه عسكرية، بالشراكة مع رئيس ألمانيا الاشتراكي الديمقراطي فريدريك إيبرت. قُتل الزعيمان السبارتاكويان، روزا لوكسمبورج وكارل ليبكنخت. في إيطاليا انتهى بينيو روسو (سنتان حمريان 1919-1920)، حيث منيت مهن المصانع واضطراب الفلاحين في تلك السنوات، بالفشل. تم تعيين موسوليني رئيساً للوزراء، بينما نزل أتباعه في روما (في 28 أكتوبر 1922).

«بعد سنوات قليلة تأسست الديكتاتورية الفاشية

يضيف الكاتب: «لم يحدث شيء جذري مثل ذلك في المملكة المتحدة أو فرنسا أو الولايات المتحدة. في عام 1920 في

بريطانيا، رفض عمال الموانئ تحميل السفن المتجهة للتدخل العسكري ضد النظام البلشفي. في عام 1926 كان هناك إضراب عام لكنه استمر تسعة أيام فقط، بينما واصل عمال المناجم نضالهم لأشهر. تم تجويعهم حتى الخضوع، وعادوا إلى مناجمهم. ظلت المؤسسة البريطانية الحاكمة قوية، كما كانت دائماً. انخفضت قيمة العملة في فرنسا، وتعاقت حكومات، ولكن كان هناك القليل من الاضطرابات بعد موجة الإضرابات في مايو 1920. في عام 1921 في الولايات المتحدة، حدث أحد أهم الاضطرابات العمالية في التاريخ الأمريكي وشمل حوالي 10000 عامل مسلح في ولاية فرجينيا الغربية (معركة جبل بليز). تدخل الجيش وقمع الإضراب، ما أسفر عن مقتل العشرات من عمال المناجم، قبل أن تعود الأمور إلى النمط المعتاد للعنف الأمريكي. قلة في أمريكا على علم بهذه الحلقة التي نادراً ما يتم ذكرها في الروايات أو «الأغاني أو الأفلام».

ويذكر المؤلف أن «اليسار تعرض للهزيمة في كل مكان، لكن ذهب كثير من القديم النظام القيصري والإمبراطورية النمساوية المجرية، والإمبراطورية العثمانية وكان هناك بعض «الجديد»: ولادة الاتحاد السوفيتي، ويوغوسلافيا، والمجر، والنمسا، وتركيا، وجمهورية أيرلندا. في الصين نجحت الحكومة القومية بقيادة تشيانج كاي شيك، في هزيمة العديد من أمراء الحرب وقتلت في عام 1927، المئات من الشيوعيين (حلفاء تشيانج السابقين) أثناء السيطرة على «معظم الصين. في أعقاب ثورة أكتوبر لم يظهر أي نظام شيوعي آخر، باستثناء منغوليا».

ويضيف: «عشية الحرب العالمية الثانية، هيمنت الحكومات اليمينية على معظم أوروبا. في عام 1923 في بلغاريا، تحول انقلاب عسكري إلى ديكتاتورية الملك بوريس. في ألبانيا جاء الزعيم المحلي أحمد زوغو، الذي استولى على السلطة في عام 1924، وحوّل نفسه إلى الملك زوغ في عام 1928، دون خوف من السخرية. كانت الدولة راسخة كدولة بوليسية عندما حولها الشيوعيون تحت حكم أنور خوجة، بعد الحرب العالمية الثانية، إلى نظام أكثر قمعية. بحلول عام 1935، أصبحت بولندا بحكم الأمر الواقع ديكتاتورية عسكرية».

في عام 1932 في ليتوانيا، أسس أنتاناس سميتونا، الذي تولى السلطة في عام 1926، نظام الحزب الواحد. في عام 1929 كان الملك ألكسندر على رأس نظام استبدادي في يوغوسلافيا. في عام 1934، جاء دور قسطنطين باتس ليصبح ديكتاتوراً في إستونيا. حصل الملك كارول الثاني على السلطة الكاملة في رومانيا عام 1938 كديكتاتور في كل شيء ما عدا الاسم. في العام نفسه، في لاتفيا، قام كارليس أولمانيس بانقلاب

طوال فترة ما بين الحربين (وحتى عام 1944) حكم الأدميرال ميكولوس هورثي المجر. كانت هناك ديكتاتوريات في أوروبا الغربية أيضاً: إيطاليا الفاشية، ثم ألمانيا النازية، وإسبانيا فرانسيكو فرانكو، والبرتغال أنطونيو دي أوليفيرا سالازار، واليونان لوانيس ميتاكساس. في ثلاثينات القرن الماضي في فنلندا، تحت ضغط من حركة لابوا شبه الفاشية، أصدرت الحكومة سلسلة من القوانين المناهضة للشيوعية تحظر المنشورات الشيوعية، وتعتقل قادة كومونيين واشتراكيين. في النمسا، تولى إنجلبرت دولفوس سلطات ديكتاتورية في عام 1933 ليقتل على يد الموالين للنازية

«استمرت الدكتاتورية حتى ضم هتلر للبلاد في عام 1938».

كانت أوروبا قبل عام 1945 مستعبدة للاستبداد اليميني، كما يذكر الكاتب، قائلاً إن جرامشي فعل في السجن ما يجب على الثوار الأذكىاء فعله دائماً: التفكير في أسباب هزيمتهم. كان يكتب أيضاً في ظلال ما بدا في ذلك الوقت أنه نكسة رأسمالية كبرى: الانهيار العظيم لعام 1929

بالنسبة للبعض كان الأمر كما لو أن أزمة الرأسمالية التي طال انتظارها قد تجلت أخيراً. ومع ذلك، لم يتمكن اليسار من العودة. كان وضع الطبقات العاملة مريعاً

تحديات مستمرة

في ثلاثينات القرن الماضي كانت معدلات البطالة مروعة حقاً، ويذكر الكاتب العديد من الإحصاءات في ذلك الوقت مثل نسبة البطالة التي بلغت 17.2% في ألمانيا، و22% في الولايات المتحدة، وحوالي 20% في كندا وأستراليا، و16% في النمسا، و15% في المملكة المتحدة

ويشير إلى أنه قبل جائحة فيروس كورونا مباشرة، كانت البطالة، لا سيما بطالة الشباب، مشكلة أيضاً. كان متوسط البطالة في الاتحاد الأوروبي 8% (ولكن 20% على صعيد الشباب). في منطقة اليورو كان أعلى قليلاً: 9.4%. لقد كانت قضية خطيرة للغاية في إسبانيا (17.4%، و40% بين الشباب) وفي معظم دول البلقان (على الرغم من أن كرواتيا بـ11.5% كانت على قدم المساواة مع إيطاليا)

ويوضح المؤلف: «لقد كانت صورة مختلطة، والبطالة أصبحت لعبة بالتأكيد في أيدي الأحزاب المعادية للأجانب. ومع ذلك، عندما نفكر في أن اليمين المتطرف قوي في بعض دول أوروبا الشرقية، فإن انخفاض الوظائف لا يبدو واضحاً بشكل خاص، فلا يبدو أن هناك علاقة وثيقة بين صعود الأحزاب المتطرفة ومعدل البطالة الإجمالي. وبالتالي، على الرغم من أنه لم يكن مثل الثلاثينات من القرن الماضي، فإن حالة التوظيف لم تكن جيدة قبل جائحة فيروس كورونا، وبالطبع من السابق لأوانه تقييم النتائج التي ستترتب على ذلك

ومع ذلك كنا أيضاً نواجه بالفعل «أعراضاً مرضية»: حكام استبداديون منتخبون ديمقراطياً في معظم أنحاء أوروبا الشرقية، وأيضاً في الغرب وأماكن أخرى. هناك فقدان للتأييد الشعبي للأحزاب القائمة التي حكمت أوروبا منذ عام 1945، وخاصة اليسار الديمقراطي الاجتماعي التقليدي، وأيضاً الأحزاب المحافظة التقليدية، فضلاً عن تصاعد كراهية الأجانب في معظم أنحاء الغرب

يركز هذا الكتاب في عمومته على الغرب، ولكن هناك أعراض اجتماعية وسياسية «مرضية» في كل مكان يتطرق إلى بعضها، مثل الهند، وهي دولة تنمو اقتصادياً بينما لا يزال الفقر المدقع سائداً، والسلوكيات المروعة للحزب الحاكم في تركيا وفي تركمانستان، وكيف أن اليمين في البرازيل يحنّ إلى الأيام الخوالي للديكتاتورية، وجنوب إفريقيا، والفلبين والمكسيك وغيرها